المبحث الثالث: البعد الثقافي في ترجمة النصوص الأدبية

تمهيد:

تظل الترجمة نشاطا يكتسي أهمية بالغة ويلقى انتشارا واسعا لأنه يتكفل بنقل الآثار الأدبية من مجتمع لآخر مؤديا بذلك دورا هاما في مد الجسور بين الثقافات وكذا زيادة الوعي والتفاهم والتوافق بينها. غير أن الاهتمام بأدب اللغات الأخرى يتطلب مراعاة المشاكل الجدية التي تُواجه ترجمة الأدب وتقصّي صعابها، لأنها تفرض على المترجم التعامل مع نص يتضمن عناصر لغوية وثقافية تعكس فكر المؤلف ونظرته إلى العالم وبيئته، ولا يمكن له بأي حال من الأحوال أن يتجاهلها حتى لا تؤول الترجمة إلى الفشل.

1- البعد الثقافي في النصوص الأدبية

لم تكن للإنسان ثقافة إلا عندما عرف كيف يشير إلى الأشياء التي تحيط به، وارتبط ظهور الثقافات المتعددة بظهور العلامات أو الرموز التي تكوّن نظام اللغة، فإن العلاقة الواضحة بين اللغة والمحتوى الثقافي لا تعني شيئا أكثر من أن للغة أساسا ثقافيا [...] كما أنها نوع من السلوك الاجتماعي مثل أي ظاهرة اجتماعية أخرى تتكون ضمن إطار ثقافة ما. (كريم زكي حسام الدين، 2001، ص 11) وهي من أهم مكونات الثقافة ومظهر من مظاهرها والوعاء الذي يستوعب كل السمات والعناصر المختلفة لثقافة المتكلمين بها. إنها « أساسا نظام عباري يحمل حركة فكرية ومعرفية وفلسفية وإدراكا وتحولات ثورية، علاوة عن كونها خزانة الماضي المتحرك لأمة معيّنة» (محمد الديداوي، 2002، ص271).

واللغة حسب كلار كرامش (1998) : « هي الوسيلة الرئيسية التي تقوم عليها حياتنا الاجتماعية، وترتبط عند استعمالها في سياقات التواصل ذات ارتباطا وطيدا بالثقافة [...] وأن المفردات التي يستعملها الأفراد تجد مرجعيتها في الخبرات المشتركة».

فإذا كانت اللغة الوسيلة الرئيسة التي يتعامل بها أفراد المجتمع والوعاء الذي يحمل كل خبرات الجماعة وتجاربها من خلال ألفاظها وتعابيرها، فلا يُمكننا فهم هذه الألفاظ والتعابير إلا بمعرفة تلك الثقافة. (ك. ز حسام الدين، المرجع السابق، ص 13)، الشيء الذي جعل إدوارد سابير **Edouard Sapir** يعتبر اللغة سبيلا للتعرّف على واقع المجتمعات، ودليلا لدراسة ثقافة معينة دراسة علمية لأنها أساسا نتاج ثقافي أو اجتماعي. وعليه، تصبح اللغة وسيلة للتعبير عن نظرة الإنسان إلى العالم المحيط به ومحدّدة لخبراته. (E. Sapir in Bassnet, 2002, p. 21).

فاللغة تفرض على المتكلم نظرة إلى العالم تجعل الثقافة والفكر يختلفان باختلاف اللغة، فذلك دليل وجود علاقة تأثر وتأثير بين اللغة والفكر، وهي كذلك حسب العالم الروسي يوري لوتمن **(Juri Lotman)** بمثابة القلب النابض في كيان الثقافة، إذ يقول: «لا وجود للغة ما لم تمتدّ جذورها في السياق الثقافي، ولا وجود لثقافة لا تحمل في عمقها تراسيم لغة طبيعية». (المرجع نفسه)

2- البعد الثقافي في الترجمة الأدبية

يعد الأدب بصفته شكلا من أشكال الإبداع البشري، مرآة للمعطيات الاجتماعية والحضارية والثقافية لمختلف الشعوب لما تحمله النصوص في ثناياها من مميزات لغوية وثقافية تجعل الترجمة لا تقبل الانحصار في نظرية لغوية ضيقة لا ترى فيها إلا مجرد نقل للمعنى تحتويه مجموعة من الرموز اللغوية. فالعمل الترجمي يتطلب بالإضافة إلى اللغة، جملة من المعايير غير اللسانية تتّصل أساسا بالواقع الاجتماعي والثقافي ارتسمت من خلالها في الأفق صورة تكشف مدى صعوبة أو عدم قابلية المميّزات الثقافية للترجمة المتصلة بمفهوم التبادل بين الثقافات انطلاقا من وجهة نظر مونادية **Monadique**. غير أن النشاط الترجمي عمل أكّدته الحاجة وبرهنت عليه الممارسة عبر التاريخ تعزّزت بموجبه النظرة الكونية **Universelle** بوصفها بديلا نتج عن التطورات التي شهدها الدرس الترجمي، خاصة من خلال تغلغل البعد الثقافي باعتباره عنصرا فعّالا في العملية الترجمية. فالمدرسة الألمانية على سبيل المثال ترى أن الترجمة الأدبية هي جزء لا يتجزأ من اللغة الأدبية وهي بالتالي نشاط ثقافي يعمل على إثراء وتقوية الإرث الثقافي. (Yowell y . A & M S.Lataiwish, 1999/2000, p. 106).

وفي السياق نفسه، أشار **نايدا** (**Nida**) إلى «أن الاختلاف الجذري بين اللغات والثقافات قد يعيق عملية إعادة كتابة وبشكل ملائم نصا كتب في لغة الأصل، إلا أن ما يربط الجنس البشري أكبر مما يُفرّق بينهم » (Nida, & Taber, 1969, p. 4) لتتكون بالتالي قاعدة للتواصل حتى بين الثقافات المختلفة. وقد كان **ياكبسن** (**Jakobson**) سبّاقا في التطرق إلى هذا الموضوع معتبرا أن كل خبرات الإنسان قابلة للانتقال بين مختلف الثقافات. كما اعتبر الفيلسوف الإسباني أورتيقا (**Ortega**) أن «الصعوبة والمشقة التي تكتنف نشاط الترجمة لا تمنع ممارستها، بل تعد تأكيدا وإشادة برونقها». (Hurtado Albir, 1990, p. 20)

انصبّ اهتمام الكثير من الباحثين على العنصر الثقافي الذي يجعل الترجمة تُصاحب موضوعا معقدا لا يكفي فيه حضور الجهاز اللغوي بمعزل عن الجهاز السوسيو ثقافي، لأن الترجمة نقطة التقاء بين الثقافات أو تواصل ثقافي، ذلك لأنها تتلازم وسياق ثقافي يحتّم إضافة الأفق غير اللساني إلى نظرية

الترجمة. ومن هنا وجب الانطلاق من مقولة لغة – ثقافة بدل مقولة لغة، اعتبارا لعدم وجود اللغة خارج السياق الثقافي. (Ladmiral, 1994, p. 18)

وبولوج العنصر الثقافي في الترجمة، أصبح المعنى يعرّف بمقتضى حقوله الثقافية والسياقية، والترجمة بعملية تأويلية تعنى بإعادة صياغة ونقل نظرة إلى العالم خاصة بشعب أو أمة إلى نظرة أخرى خاصة بشعب أو أمة مغايرة. وشكّل هذا التوجه أبرز تحول شهده الدرس الترجمي تزامنا مع نشر كتاب "**الترجمة التاريخ والثقافة**" سنة 1990 من تأليف الثنائي سوزان باسنت وأندري لوفافر .**S**) (**Basnett et A. Lefevre** وعُرف هذا التحول باسم "**المنعرج الثقافي**" **–Le Virage culturel cultural turn**، ومن أهم مخرجاته تجاوز الدرس الترجمي النظريات اللغوية بسبب محدوديتها، وتحول مركز الاهتمام إلى ما وراء اللغة نحو النص بصفته وحدة تتصل به جوانب غير لسانية أهمها الجانب الثقافي والسياسي. وتتم ضمن هذا المنظور عملية تحليل الترجمة مع النظر في العلاقة بين اللغة والثقافة، وكذا كيفية تأثير هذه الأخيرة في الترجمة.

في ظل هذا المفهوم، صارت مظاهر الاختلاف تتجاوز النصوص مثيرة النقاش حول موضوع الهوية الثقافية واحترام الآخر الذي لُم ينظر إليه إلا من خلال مرجعية الثقافة المستقبلة ومفاهيمها. وببروز مفهوم ترجمة " **الآخر l'Autre**" أو "**الغيرية Altérité**"، خاصة في سياق العولمة والتحولات الاجتماعية الكبرى التي شهدها العالم بأسره، ظهرت إلى الوجود مسائل أخرى مثل السياسة الترجمية والأخلاق والأيديولوجية لتضاف إلى سجل الترجمة الحافل بالعقبات. لقد «كان جل المترجمين على دراية بالمشاكل المتنوعة التي تطرحها الفروقات اللغوية والثقافية، غير أنهم ما انتهوا عن ممارستها رغم كل المعوقات، يقينا منهم أنه لا يمكن لأي ثقافة أن تقوم بمعزل عن غيرها من الثقافات». (إ. ز خورشيد، المرجع السابق، ص 3).

وضمن هذا الأفق، يطرح النص الأدبي بالنظر إلى بنائه اللغوي الخاص إشكالية تفعيل الترجمة المناسبة التي تتطلب كفاءة واندماجا في اللغة الأصل واللغة الهدف وثقافتيهما قصد الإبقاء على كيانه المتميز وأصالته. أما من الجانب العملي، فيبرز إشكال ترجمة الخصائص الثقافية في كيفية نقلها إلى النص المترجم من حيث انصهارها في الثقافة المستقبلة أو تمسكها بالأصل. فلم يثبت المنظرون في ميدان الترجمة على رأي واحد وانقسموا إلى فريقين لكل منطلقه وحججه، منهم من يعطي الأولية للنص الهدف بمميزاته اللغوية والثقافية ويطلق عليهم اسم (**les ciblistes– Targeteers**)، ومنهم من يعطي الأولية للنص الأصل كذلك بمميزاته اللغوية والثقافية ويطلق عليهم اسم (**les sourciers– Sourcerers**).